الباب الأول

الأمـــة

الفصل الأول : وحدة الأمة

الفصل الثاني : الروابط المشتركة

الفصل الثالث : خصائص الأمة

الفصل الرابع : الصبغة

الفصل الأول

وحدة الأمة

إن توحيد الأمة لا يكون إلا علىٰ أسس تتوفر لدىٰ غالبية الأمة ، فالأمة الإسلامية التي انصهرت في بوتقتها عصبية الجنس والعرق واللون والإقليم والنسب. . . إلخ ، تقوم علىٰ دعوة الأنبياء جميعاً من التوجه لخالق ورب واحد والاحتكام لما شرع . ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وبذا تجتمع الأمة علىٰ مثل وقيم ربانية لا تفرق بين أحد من العباد . أساسها :

١ـ الحب الذي يدفع إلىٰ الأثرة .

٢ـ والأخوة التي تعني التسامح .

٣ـ ترك ما دون الله من التبعية لمبادىء من صنع البشر غير قادرين علىٰ رسم طريق سليم لحياتهم بلهة للآخرين .

٤ـ وجعل الناس مع بعضهم متعاونين متحابين .

فالإسلام لا ينكر الانتماءات للمناطق والقبائل والشعوب ولكنه لا يسمح أن تستخدم لغير ما أُريدت له ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات : ١٣] والسعي الذي يقوم به المرء بشأن نفسه وأسرته وقومه وعشيرته هو مؤشر خير للمجتمع ، ولكن لا عصبية بحق أو بغير حق ،

فالإسلام يرفض التفسير الجاهلي للحديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً[1] ويعدُّ أن نصرهُ ظالماً بأن ترده عن غيه إلىٰ طريق الحق ، فالحق أحق أن يتبع .

والرسول الكريم يقول : « ما منا من دعا إلىٰ عصبية أو مات علىٰ عصبية أو قاتل علىٰ عصبية »[2] ، وعليه فإن قيام دولة علىٰ أساس عرقي أو قومي أو علىٰ أساس نظام اقتصادي من صنع البشر ، أو علىٰ أساس عقيدة علمانية ، غير مقبول علمياً ولا منطقياً ، حيث لا يحكم الكيانات القائمة علىٰ هذه الأسس ضوابط إنسانية ، بل تشعر الأقليات الغير منتمية إليها بعزلتها ، ولأن الأفراد فيها غير مرتبطين مع بعض بروابط فكرية أو عقيدة معينة أو لغة واحدة ، بل هي تجمع بين المتناقضات كاجتماع الذئب مع الحمل ، والأبيض مع الأسود ، والليل مع النهار ، فلا تكون مفيدة لفئة إلا علىٰ حساب فئة أخرىٰ ، وبهذا تضعف إمكانات الجميع وتهدر طاقات الأمة ، وبالتالي يغيب الهدف الذي من أجله خلق الإنسان وهو :

١ـ إقامة الخلافة في الأرض .

٢ـ وإعمار الأرض .

٣ـ وتحقيق العبودية لله . ولا تطول المدة حتىٰ تتفتت الأمة وتتجزأ .

٤ـ وتنادي كل فئة بالانفصال لأنها فقدت مصلحتها أو أُنتقِص حقها . . كما هو حال كثير من لأمم قديماً وحديثاً .

إن تحقيق طموحات الأمة وسعادتها وجعلها أمة قدوة للبشرية في توادد أفرادها وتراحمهم ومثل أعلىٰ في الواقع الحضاري لا يكون إلا في

---

(١) « مشكاة المصابيح ٤٩٠٧ ومسلم ١٧٧٤ .

(٢) المرجع نفسه ٤٩٠٧ .

مجتمع إسلامي واحد « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالحمىٰ والسهر »[1] ، وعلىٰ أساس :

١ـ أن يكون الإسلام منهج حياتهم ، والعبودية لله معلم كبير في حياتهم ، فالعبودية لله وإقامة الحياة وفق المنهج الإلهي ورفض الشعارات المنحرفة والضالة التي خدع بها بعضهم دون تحقيق ولا تمحيص .

٢ـ لا بد أن يُعَدَّ كتاب الله (القرآن) والسنة المطهرة مصدرا الهداية الوحيدين ، وما سواهما لا يفي بالغرض ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] فوحدة العقيدة هي التي تجمع شمل الأمة ، وتشكل القاعدة الأساسية في بناء الفرد وعلاقته مع الآخرين .

كما أن ذلك لا يتم إلا في إطار الاجتهاد الفقهي الذي هدفه المصالح العامة للإنسان ككل . فإذا رجعنا إلىٰ تجربة الدولة الإسلامية الأولىٰ لنستفيد منها نجد أن الاختلاف الفكري في الاجتهاد لم يكن يوماً سبباً لاختلافها أو انقسامها أو تخلفها ، بل علىٰ العكس كان سبباً لإغناء الفكر الإسلامي باجتهادات تواكب العصر ، بل إن سبب تمزقها كان الخلاف القائم علىٰ الجهل والتعصب السياسي وخاصة تعصب قومي بتدخل من أعداء الإسلام (اليهود) ومن الدول الذين دالت دولتهم فقاموا بزرع بذور الشقاق بدافع الحقد والحسد .

إن دولة الإسلام هي التي تظهر الموازين العادلة للإسلام ، وتحمي الدماء ، وترفع الظلم ، وتوقف نهب خيرات وثروات الشعوب ، وتحفظ كرامة الإنسان ، إنها تعني تطابق بين أنظمة الكون العلمية والاجتماعية ،

---

(١) مسلم ١٧٧٤ .

لأن الذي يدير الكون بقدرته هو الذي يحكمه بشرعه ، وسواه لا يستطيع تحقيق ذلك .

إن الديموقراطية الغربية التي فرضها الاستعمار علىٰ بلاد الإسلام إبان الانتداب كانت أداة لتشويه الإسلام ، وأسلوب فاعل للتمهيد للإلحاد علىٰ اعتبار الدستور العلماني ، مما دفع لردود أفعال ، فقامت أحزاب إسلامية تريد أن يحكم الإسلام البلاد عن طريق الأحزاب كما هو في سائر الأحزاب الوطنية والقومية وذات النهج الاقتصادي والعلماني... وغيرها . فدخلت في هذه اللعبة ولم تستطع أن تحقق أهدافها ، بل صار ارتباط اسمها ودروها بتطبيق الشريعة دوراً تعصبياً يشابه التعصب القومي فظهر الإسلام المتطرف . وهكذا أصبحت استراتيجية دمج الدين بالدولة عن طريق نظام ديموقراطي ممقوت أصلاً وبالتالي جعل الأسلوب التي تبنته تلك الفئات للتغير من الأعلىٰ كأسرع طريق للوصول يعرقل مسيرة المسلمين لأن يُحكَموا بالإسلام لـــبين :

١ـ إن أصل ديموقراطية الغرب الممقوتة لا يقبلها الإسلام .

٢ـ إن استخدام الديموقراطية لدمج الدين بالدولة عمل غير مقبول شرعاً وواقعاً ، بل إن التدرج في تطبيق الأحكام الإسلامية من القاعدة وتعريف الناس بالإسلام هو الأولىٰ إلىٰ أن يعمم التطبيق الكامل للإسلام . وعندئذ يصبح طلب الأمة تطبيق الشريعة الإسلامية تحصيل حاصل .

إن تشكيل أحزاب إسلامية ووضع برامج لها علىٰ طريقة البرلمانات ، وتمكين المؤهلين من رجالها المسلمين من شغل مناصب رئيسية في السلطة قد أساء لأن الولاء صار للعبة الديموقراطية علىٰ حساب الدعوة الإسلامية ، وأظهر أن هذا التصرف هو رأي الإسلام والحقيقة غير ذلك .

فالإسلام بمضمونه ومحتوياته قادر وغني لتصحيح أحوال البشر علىٰ مر الزمن ، إلا أن ضعف المسلمين وضعف تمسكهم بعقيدتهم ساعد التيارات الفكرية الغازية علىٰ الترويج لبضاعتها في أسواق المسلمين وعَدَّ صمتها ليس إلا قبولاً به . ولقد أعاد بفضل الله قسم من المسلمين النظر فيما دخل عليهم بعد أن ثبت لهم عجز الأنظمة العلمانية وقصورها عن تحقيق أهداف الأمة ، وزيف الادعاءات الباطلة البراقة ، فأعادوا النظر بالإسلام منهجَ حياة يحقق العدالة ويؤمن الكرامة ، فتمسكوا به ، وأعرضوا عن غيره . إن تطبيق الشريعة والالتزام بفقه النصوص والاجتهاد لتطبيقه في جميع نواحي الحياة وعلىٰ جميع الأصعدة ، سوف يبرز الدور الهامشي والعابث للقوانين الوضعية بعد ثبات عدم قدرتها علىٰ تحقيق العدالة والمصلحة للجميع ، بل إنه معرقل لمسيرة التطور العلمي الذي سمح به خالق الكون . لذا فتطبيق شرعه سيبرز قدرة هذا الشرع علىٰ مواكبة الأنماط المتجددة من التقدم العلمي بشكل يتناول قواعد الحق والعدل وحقوق الإنسان والتكافل الاجتماعي .

* * *

الفصل الثاني

الروابط المشتركة

المسلم وحسب قوة التزامه يتمثل بقيم ومبادىء خلقية في أقواله وأفعاله والإيمان بالله هو المحرك والدليل . يلتقي في ذلك مع أي مسلم في أية بقعة من العالم علىٰ المشاعر والعواطف والأحكام نفسها .

١ـ دور الفطرة الإنسانية :

أ ـ فالشعور بالرضىٰ من العمل الصالح واحد عند كل مسلم ، لأنه شعور الفطرة الإنسانية .

ب ـ وكذلك الشعور بالألم الذي يتحسسه المسلم في حال عدم قدرته علىٰ مساعدة الآخرين ؛ هو شعور واحد لدىٰ أي مسلم في أية بقعة من الأرض .

ج ـ فالإنسان مفطور علىٰ التعلق بصفات الكمال التي طبعها به خالقه صاحب الكمال وهذا التعلق يتناسب طرداً مع صفاء الفطرة وعدم انغماسها في أدران المادة . فالصدق والكرم والعلم والرحمة والحلم وما إلىٰ ذلك من الصفات التي هي متعلقات الأسماء الحسنىٰ لله جل وعلا قد فطر الإنسان علىٰ التعلق بها والرضا بها إذا لم تكن فطرته قد أصابها بعض الشوائب أو لم تكن قد تدنست من جراء انجرافها من وراء شهوات المادة

أو انحرفت عن جادة الصواب . فالصدق من الفطرة ، والأمانة من الفطرة ، وكذلك الحلم والكرم كلها مرغوبة من جميع شعوب الأرض وعلىٰ مر الزمن ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم : ٣٠] . وكذلك مقت الأخلاق السيئة كالكذب والخيانة واللؤم والغش والخداع والحقد وما إلىٰ ذلك يشترك في مقتها جميع البشر من جميع بقاع الأرض علىٰ مر الزمن ، لأنها تعكس مخالفة الفطرة الإنسانية . فأية رابطة أقوىٰ من أن يرتبط الإنسان مع أخيه الإنسان برابطة الفطرة المقدسة التي فطر الله عباده عليها ؟ هذه الفطرة المقررة في كتب الأنبياء جميعاً عليهم السلام ، ويمكن اعتبار هذه الفطرة هي ميزان أي كتاب من التحريف ، فما من عاقل يمكنه القول أن الله يفاضل بين إنسانين هو خلقهما ورزقهما . . ! والكل لآدم وآدم من تراب ولكن الله لا يرضىٰ عن عمل سيء ارتكبه إنسان ويرضىٰ عن عمل صالح قام به آخر ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر : ٧] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج : ٣٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

فالدين الصحيح هو الذي يتطابق مع الفطرة لأن الذي فطر العباد هو الذي شرع الدين ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ ﴾ [الشورىٰ : ١٣] فقد شرع الدين للأنبياء ولعباده وكذلك فطرهم ، فأية رابطة بين البشر أقوىٰ لجمعهم عليها من رباط الفطرة والتعلق بأسماء الله وما شرع لعباده وللأنبياء ؟

د ـ حرية الاختيار ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف : ٢٩] وأي اختيار أعظم من أن تكون حراً في في شكر المنعم الذي لا تخفىٰ نعمهُ إلا علىٰ معاند أو مكابر أو جاحد لها كافراً بالله .

هـ ـ طلب المعرفة ومحبة العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] فطلب العلم لا ينتهي ولولاه لما تقدمت البشرية قيد أنملة منذ خلقت ، يقول عليه السلام : « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال »[١] لأن طالب العلم مدفوع بفطرته ، وطالب المال مدفوع بشهوته (حب الدنيا) .

و ـ حب العدل والمساواة بين الناس ، فالعدل للجميع هو مصلحة عباد الله قائم علىٰ احترام حرية الفرد بما لا يتعارض مع مصلحة المجموع . وعلىٰ احترام آراء الآخرين بما لا يسيء لغيرهم . ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٨] . «وكونوا عباد الله إخوانا »[٢] .

٢ـ دور المحبة والتراحم :

والرابطة الإسلامية لها أثر إيجابي أعمق في كيان الجماعة بالإضافة للفطرة . فهي تربط بين قلوب المؤمنين برباط المحبة والتراحم بعد أن ربطت المؤمن وغيره برباط الاحترام والمصلحة . «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٣] .

٣ـ وحدة العقيدة :

ولها أثر إيجابي آخر في المجتمع بما تربط بين أفراده برباط العقيدة والكتاب الواحد والسنة المبينة له . فالإسلام هو النظام العلمي في أساسه المطابق للفطرة في حركاته ، فيجمع بين الأمرين بخلاف الأنظمة التي

---

(١) مشكاة المصابيح ٢٠٦ .
(٢) مختصر صحيح مسلم ١٧٧٥ .
(٣) مختصر صحيح مسلم ١٧٧٤ .

لا يرتبط أفرادها بعقيدة ، فتراهم تتغلب المصلحة الشخصية عندهم علىٰ المحبة والتعاطف ، فينظر الفرد لنفسه نظرة استعلاء ولغيره نظرة ازدراء ، أو يفقد الفرد فيها إحساسه بذاته وشعوره بكرامته حتىٰ تذوب البواعث الطبيعية وتفقد الضوابط التي تحكم العلاقات والمعاملات وتطغىٰ الغرائز والشهوات علىٰ العقل والحكمة ، والقوة والتسلط تفرز الحقد .

فالوحدة الإسلامية أساسها وحدة العقيدة والوجهة ، فالمسلمون جميعاً يؤمنون بالله خالقاً ومربياً ومسيراً ويؤمنون بأسمائه الحسنىٰ ويؤمنون بالملائكة والرسل جميعاً واليوم الآخر والحساب والجنة والنار . وجميع هذه تجعل الرابطة أمتن لأن المفهوم الواحد لجميع مشاكل الحياة ينبع من هذا الإيمان ، فالذي يؤمن بالآخرة والحساب لا يتصرف إلا ضمن هذا الإطار يرجو الثواب ويخاف عقاب الله ، وهكذا تستقيم أعمال الجميع وتضمهم رابطة الإيمان . ومن طرف آخر فالذي فرط علىٰ نفسه وأغواه الشيطان في لحظة ضعف فانحرف عن الصراط ، تذكر الآخرة والثواب والحساب ، وشعر بأنه خرج من المجموع ، فندم علىٰ ما فرط وذكر اسم الله الغفور ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] فما لبث أن أحدث توبة وأناب إلىٰ ربه ، وسار مع الركب فالتقىٰ مع التائبين ، وعذر المنحرفين ، وتذكر ضعفه مثلهم ، فدعا لهم واستغفر لهم ، فتمتنت الرابطة وأظلت الجميع رحمة الله ، يعذر بعضهم بعضاً ويأخذ أحدهم بيد الآخر .

٤ـ وحدة العبادة :

كذلك فإن وحدة العبادة الواحدة التي تجمع المسلمين في أنحاء الأرض حيث يشعر المصلي أنه يصلي مع كل مصلٍ في أية بقعة من العالم ، وكذلك الصائم يشعر بشعور الأخوة مع الصائمين وأنه جزء منهم

يصوم ويفطر معهم (مع فروق التوقيت) ، والحج يجمع أجناس وألوان المسلمين علىٰ صعيد واحد ينادون بلغة واحدة ، ويلبسون لباساً واحداً ، ربهم واحد ، فأي شعور بالوحدة أعظم من هذا الشعور عندما تسمع من الجميع (لبيك اللهم لبيك. . .) يؤدون المناسك الواحدة بوقت واحد ؟

وتزداد رابطة الإيمان متانة كلما مارس المؤمن عبادة ما ، أو التقىٰ بمسلم في منطقة ما يمارس معه نفس العبادة .

٥ـ وحدة الهدف :

ثم إن وحدة الهدف تجمع المسلمين أينما كانوا ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء : ٥٧] ويسألونه جنته ويطلبون رضاه يرجون جميعاً أن يقبل توبتهم ويغفر لهم ذنوبهم . أليست تفيض علىٰ المسلم مشاعر جديدة بالارتباط بأخيه المسلم .

٦ـ الإحساس المشترك :

ورابطة أخرىٰ تضاف إلىٰ هذه الروابط هي التي تجمع المسلمين علىٰ طلب العمل الصالح ، فالمسلم دأبه أن يتصدىٰ للأعمال الصالحات إرضاءً لربه ، ومشاركاً لإخوانه في الذوق السليم ، فالأعمال الصالحة واحدة عند الجميع ، وكذلك البراءة من الذنوب والآثام والأعمال السيئة فهذا هو الإحساس المشترك . ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف : ١١٠] . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧] .

٧ـ وحدة الأُسوة :

كذلك يشترك المسلمون برباط محبة رسولهم عليه السلام فهو أسوتهم الحسنة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] فالمحبة الواحدة لهذا الرسول واتخاذه أسوة حسنة من الجميع يُعَدُّ لوحده رابطة عظيمة ، ويجعل أعمالهم جميعاً في منحىٰ واحد سواءً الأعمال الفردية أو الجماعية أو العبادية أو الجهادية ، أو أية أعمال حتىٰ العلاقات الأسروية والزوجية ، فالعمل المباح لذي قام به رسول الله صار عند الجميع سنة لهم .

٨ـ وحدة الماضي والحاضر والمستقبل المشترك (التاريخ) :

إن أعمال المسلمين لها سمات واحدة لأن المسلم ما يعمله لنفسه يعمله للآخرين أو بالعكس : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

ونقطة أخرىٰ ليست أخيرة فالرابطة بين المسلمين لا تجمع المسلمين الحاليين فقط بل تربطهم جميعاً بإخوانهم في الماضي وفي المستقبل بذرياتهم . . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر : ١٠] ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

* * *

---

(١) « مشكاة المصابيح » بخاري ومسلم ٤٩٦٢ .

الفصل الثالث

خصائص الأمة

لقد شرف رب العزة هذه الأمة بشرف ما بعده شرف ، فقد أطلق عليها ألقاب سماها بها ، وشرف الاسم من شرف المسمي ، وقدسيته من قدسيته ، والله تعالىٰ لا يطلق اسماً إلا ويعنيه ، فليس يلقي الألقاب جزافاً تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً ، وكيف لهذه الأمة أن لا تتيه فخراً وتنعم طرباً بما خصها عن سائر الأمم ؟ وهذه الألقاب تخصها طالما التزمت بالنهج الذي أراده لها ، وطبقت ما فرضه عليها فنالت ما وعدها به . فمن هذه الألقاب :

١ـ الوسطية :

قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] والجعل يأتي بعد الخلق ، فالله خلق الناس كلهم ولكن بعد ذلك جعل فئة أو أمة وسطاً ، والجعل بالماضي أي منذ الخلق جعل من يلتزم بشرع الأنبياء أمة وسطاً .

والوسطية بين التطرف والغلو . وتعرف بأنها الحسن بين نقيضين ، أو المحمود بين خلتين ذميمتين ، فإذا انحرف إلىٰ أي طرف وقع في المذموم فعدا هذه الأمة محروف إلىٰ أحد النقيضين : إما إلىٰ المادية البحتة

المغرقة فيها وليس للقيم الدينية مكان . أو إلىٰ التبتل والرِّياضات الروحية تاركةً الدنيا وعلومها التي هي جزء أساسي في حياة الإنسان علىٰ الأرض .

ـ وهكذا فالأمة الإسلامية وسط بين المادية والتعامل معها والسير علىٰ منهج الله وجعلها شهيدة علىٰ الناس : الأمم الأخرىٰ ، فهي التي توزن تصرفاتهم بها فتوزن أعمالهم بالقياس علىٰ أعمالها ، لأنها المؤشر والدليل علىٰ صحة العمل أو الانحراف ، كما توزن أعمال أمة الإسلام بعمل رسول الله ﷺ المؤشر علىٰ صحة عمل أمته ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

٢ـ الخيرية :

كذلك خصها الله بالخيرية قال تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

فكنتم هذا الفعل الماضي ليس له بداية ، فالأمة التي طبَّقت شرع الله منذ بدء الخليقة هي خير أمة ، فالخيرية صفة تفضيل فهي أفضل أمم الأرض صفة ثابتة متلازمة أبد الدهر طالما تتصف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتؤمن بالله ، لأن هذه الخصائص غير موجودة لدىٰ باقي الأمم ، فهي خير أمة بالتشريف ، وخير أمة بالتكليف ، لم يكلف غيرها بما كلفت به لأن المعروف لدىٰ هذه الأمة ليس هو المعروف عند غيرها ، وكذلك المنكر والإيمان بالله .

أما المعروف الذي تأمر هذه الأمة فهو المعروف من فطرة الإنسان أولاً ، وما عرفته الأمم عن طريق أنبيائها من أمور الحق والعدل في الأفراد والأمم ، وما عرفته أمة الإسلام عن الله من كتاب الله والسنة للمطهرة ، فالحق والعدل واحد في جميع ما ذكر لا يختلف فيها مؤمنان ، فهذه الأمة

تمتاز بمعرفة الحق والأمر به لدفع الظلم وإزهاق الباطل ؛ والسكوت عن الحق ظلم للحق وأهله ، ورواج للباطل وأهله ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

ـ والنهي عن المنكر ، والمنكر ما أنركته الفطره السليمة ، وما أنكرته شرائع الأنبياء في الأمم الغابرة ، وما أنكرته الشريعة الإسلامية بالكتاب والسنة ، فالفساد والاستعلاء بالأرض والظلم وإتيان الفواحش قد أنكرته الفطرة ، فقارون الذي بغى في الأرض ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ [القصص . ٧٩] فكان هذا فساداً في الأرض ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص : ٧٧] وفرعون ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] وما قام به قوم لوط من الفاحشة ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥] ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] قد أنكرته الفطره والأنبياء والقرآن فلا مجال للمراء فيه ولو سنت له قوانين الدول وأدخل ضمن الحريات الشخصية كما يزعمون ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] لأنه يفسد سنن الكون الاجتماعية والأخلاقية والصحية ويدمر حياة الأمة .

٣ـ الوحدة :

وقد حبا الخالق العظيم هذه الأمة بصفة الوحده ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمون : ٥٢] وهذه الصفة مشتقة من اسمه الواحد ، فما أكرمها من ميزه تنفرد بها هذه الأمة عن باقي الأمم ، فالأمة الإسلامية أمة واحدة ولو ابتعدت المنازل بين أفرادها فهم إخوة متحابون متحدون « كالجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالحمىٰ والسهر »[1] ، فلا تتجزأ

---

(١) مختصر صحيح مسلم ١٧٧٤ .

هذه الأمة ولا تتفرق وليس لجزء أن يدعي أنه هو الأمة حتىٰ يفيء هذا الجزء لأمر الله . ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٥] ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

٤ـ الكمال ـ والتمام : (كمال التشريع وتمام الأمثلة والوقائع)

واختصت هذه الأمة بأنها كاملة العقيدة ، فقد غطت الشريعة كل ما يلزم هذه الأمة من حلول لمشاكلها المتجددة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، فالأسس لحل أية مشكلة مبينة بالشرع ، وقد غطيت بالكتاب أو بالسنة ولكن دور المجتهدين هو في إيجاد النص الذي يغطي الحادثة ـ فالعقيدة تقوم علىٰ التواتر النقلي ، أو الثابت العقلي فلا تعارض بينهما ـ وأمور الشريعة تقوم علىٰ تحقيق المصلحة وتيسير الطاعة للمداومين عليها ، وعليه : فدرء المفاسد مقدم علىٰ جلب المنافع ، وهناك قواعد تنبثق عن هذه الأصول مثل : الضرر يزال ، والضرر الخاص يحتمل في سبيل دفع الضرر العام ، وأنه يدفع أشد الضررين ، وأن كل أمر جاء به نص صريح فالمصلحة فيه مؤكدة ، وكل شيء نهىٰ النَّصُ عنه ، كان الضرر فيه ثابت ، وأنه من تمام النعمة أن سهل الله لعباده سبيل الوصول لحل مشاكلهم علىٰ مر الزمن ، وهذا يقع علىٰ كاهل علماء الأصول في استنباط الأحكام كما سيذكر فيما بعد .

٥ـ الاستخلاف في الأرض :

وقد وعد الله هذه الأمة بالاستخلاف في الأرض والتمكين لها إذا هي التزمت وتمسكت ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي ﴾ [النور : ٥٥] .

فالاستخلاف هو المهمة الأولىٰ للإنسان علىٰ الأرض ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، خليفة يظهر الحق والعدل ويجسد الأسماء الحسنىٰ ليعيش الناس في بحبوحة الشرع بأمان وسلام ، ولقد مكن الله لهذه الأمة ما لا يستطيع المرء تخيله ، فكم كيد لهذه الأمة من أمم كانت هي المستفيدة من علمها وعدلها ثم بغت وغدرت وأمعنت لاستئصال شأنتها متعاونة مع (شياطين الإنس والجن) علىٰ الباطل ، ما لو كيد لغيرها لأبيدت واندثرت ولأصبحت أثراً بعد عين . ولا يزال هذا الكيد ماضياً ظاهراً ومستقراً عرفه من عرفه وجهله من جهله ، ويكفي نظرة سريعة علىٰ بؤر التوتر في العالم لنجد أنها مناطق المسلمين ، فالأمة الإسلامية ممكنة ولله الحمد ، وهي علىٰ تشرذمها وتقطعها هدفاً للقطب الواحد وباقي المعادين ظاهراً وباطناً .

٦ـ الحرص والعناية :

كما خصَّ هذه الأمة بنداءات الحرص التي لا تصدر إلا عن محب بعد أن شهد لها بالإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، فبيَّن أنه لا يريد لنا إلا أن نحيا الحياة الحقيقية التي تميز العباد المكرمين ، وليس الحياة البهيمية التي يشترك فيها جميع المخلوقات . قال تعالىٰ : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الحديد : ٢١] .

٧ـ النصح والإرشاد :

كذلك فقد اختص هذه الأمة بنصائح ثمينة فقال : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ،

وعلمهم كيف يدعونه وماذا يطلبون منه ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٨٦]. . . إلى ما هنالك من التوجيهات والنصائح .

* * *

الفصل الرابع

الصبغة

١ـ فوائد الإيمان :

الإيمان بالله يجعل الإنسان في أمن وأمان وقد آوىٰ إلىٰ ركن شديد ، فعرف البداية والنهاية ، وعرف ربه ، كيف يعامله وكيف يحاسبه .

فالإيمان يجعل الخوف منه وحده ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] ، والخشية منه وحده ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٩] ، ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

والإيمان يجعل الإنسان مالك الدنيا لأن الكون كله مسخر له ولا يسمح للدنيا أن تملكه بزينتها . ينزل به البلاء فلا يثني عزيمته ، يعرف أنه من الله ، وله في الصبر عليه أجراً ، فلا تزيده الشدائد إلا عزيمة أقوىٰ ، فيستهين بالموت والصعاب .

والإيمان قوة في الباطن والظاهر « المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير »[١] .

الإيمان سمو في الخلق والسلوك لأنه علىٰ خطىٰ الرسول الذي أثنىٰ

---

(١) رواه مسلم « رياض الصالحين » ١٠٠ .

عليه ربنا بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] . لأنه إخلاص بالنية أولاً وبالقول ثانياً وإخلاص بالعمل .

الإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « عفة عن المطامع عفة عن المحارم ، والإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمناً »[١] . .

الإيمان عزة بالله لا يذل المؤمن إلا لله . ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] . فبعد استبانة الطرق ووضوح الخطة فلا يتأثر المؤمن بوعد أو وعيد ولا يحرفه هوى أو شهوة .

والإيمان سبب رضاء الله ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : ١٨] وسبب دخول الجنة « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »[٢] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الحج: ١٤] .

والإيمان سبب للتخلق بأخلاق الله فيصير للمؤمن نصيب من كل اسم من أسمائه الحسنى فله قلب رحيم للضعفاء ويرحم الغافلين فيصرفهم عن غفلتهم بالرحمة والموعظة الحسنة ، لا يدع فاقة لمحتاج إلا ويسدها ويدعو للصدق في المعاملات والإتقان في العمل ، ويشمل الإيمان : الإيمان بالله وبصفاته وأسمائه وإيمان بوجوده وتوحيده يشمل :

أ ـ توحيد الربوبية والأسماء والصفات .

ب ـ وتوحيد الألوهية والعبادة .

وهو التوحيد الذي جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب وأمرنا به ، وبالاقتداء بالرسل ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] ،

---

(١) البخاري في « التاريخ الكبير » و« مشكاة المصابيح » ٣٥٤٨ وأخرجه أحمد عن الزبير بن العوام .

(٢) « مشكاة المصابيح » ١/١٦٢١ .

ويشمل الإيمان أيضاً ما آمنت به الأنبياء والمرسلون ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وهذا يستتبع إيمان بالملائكة والكتب المنزلة على الأنبياء وإيمان بالرسل وبما جاؤوا به ، مما يجعل الأمة وحدة واحدة بالعقيدة والوجهة .

٢ـ تزكية النفس :

إن الإيمان الذي استقر فكراً وقناعة وسرى شعاعه في القلب فغير الفرد والمجتمع ونقل الجميع إلى عالم يرضي الله ، وصارت محبة الله ورسوله كل شيء في حياة الإنسان ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] ، والرسول الكريم يقول : « لا يكمل إيمان العبد حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواه » .

فبعد الإيمان بالله والالتزام بما أمر به الله وترك ما نهى الله عنه والصبر على ابتلاءات الله ، والشكر على نعم الله وخشوع وخضوع النفس لآلاء الله ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٦] ، لسان حاله يقول لا نكذب بآلاء الله ، ثم ينشغل بالعمل بما يرضي الله في نفسه وخدمة الآخرين ، فكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وكان من الذاكرين لله كثيراً فتزكت نفسه ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ـ١٠] ، وانتقل إلى مرحلة الغيرية يغار على مصلحة الآخرين فدخل في العبودية مع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، على أثر رسول الله الذي يقول « من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » ، وصار من الذين ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] ، أو من الذين ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا

﴿وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان : ٨-٩] ، وتمثل برسول الله عندما آذاه المشركون فقال : لا أدعو عليهم بل قال : « عسىٰ أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله . . »[١] ، فالقلب الذي سلم من الحقد والضغينة والكراهية والحسد ، وامتلأ بالحب والرحمة ، فانتقل بصاحبه من الطمع والشح المهلكين ، إلىٰ السخاء والجود ، والأثرة المسعدتين . فتراه يجود بصحته وراحته وعلمه وحتىٰ بنفسه ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [القصص : ٧٧] ، مثاله أبي طمطم الذي قال عنه رسول الله ﷺ أنه قال : « اللهم لا مال عندي أتصدق به وقد تصدقت بعرضي فمن شتمني أو قذفني فهو حر »[٢] أو كما قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنما أنا بشر ، فأيما عبد سببته أو شتمته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلاً فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة »[٣] . ثم بعد ذلك يتخطىٰ هذه المرحلة ليصل لمرحلة الإيثار .

هذه هي المهمة التي وجد لأجلها الإنسان : إعمار الأرض بكمالات الأسماء الحسنىٰ ، وإقامة الخلافة والاستخلاف . . .

* * *

---

(١) « البداية والنهاية » ٣/ ١٣٧ إثر عودته من الطائف .

(٢) تفسير القرطبي ج/ ٣ البقرة آية ٢٤٥ .

(٣) مختصر صحيح مسلم ٨/ ١٢٠ .